

تفسير ابن كثير

يقول تعالى : { ومن يعش } أي يتعامى ويتغافل ويعرض { عن ذكر الرحمن } والعشا في العين ضعف بصرها والمراد ههنا عشا البصيرة { نقيض له شيطانا فهو له قرين } كقوله تعالى : { ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى } الآية وكقوله : { فلما زاغوا أراغ } : { قلوبهم } وكقوله جل جلاله : { وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم } الآية ولهذا قال تبارك وتعالى ههنا : { وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون * حتى إذا جاءنا } أي هذا الذي تغافل عن الهدى نقيض له من الشياطين من يضلّه ويهديه إلى صراط الجحيم فإذا وافى D يوم القيامة يتبرم بالشيطان الذي وكل به { قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين } وقرأ بعضهم { حتى إذا جاءنا } يعني القرين والمقارن قال عبد الرزاق : أخبرنا معمر عن سعيد الجريري قال : بلغنا أن الكافر إذا بعث من قبره يوم القيامة سفع بيده شيطان فلم يفارقه حتى يصيرهما A تبارك وتعالى إلى النار فذلك حين يقول { يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين } والمراد بالمشرقين هاهنا هو ما بين المشرق والمغرب وإنما استعمل هاهنا تغليبا كما يقال : القمران والعمران والأبوان قاله ابن جرير وغيره .

ثم قال تعالى : { ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون } أي لا يغني عنكم اجتماعكم في النار واشتراككم في العذاب الأليم وقوله جلت عظمتة : { أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمي ومن كان في ضلال مبين } أي ليس ذلك إليك إنما عليك البلاغ وليس عليك هداهم ولكن A يهدي من يشاء ويضل من يشاء وهو الحكم العدل في ذلك ثم قال تعالى : { فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون } أي لا بد أن ننتقم منهم ونعاقبهم ولو ذهبت أنت { أو نرينك الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون } أي نحن قادرون على هذا وعلى هذا ولم يقبض A تعالى رسوله صلى A عليه وسلّم حتى أقر عينه من أعدائه وحكمه في نواصيهم وملكه ما تضمنته صياصيمهم ! هذا معنى قول السدي واختاره ابن جرير .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن عبد الأعلى حدثنا ابن ثور عن معمر قال : تلا قتادة { فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون } فقال : ذهب النبي صلى A عليه وسلّم وبقيت النعمة ولن يري A تبارك وتعالى نبيه صلى A عليه وسلّم في أمته شيئا يكرهه حتى مضى ولم يكن نبي قط إلا وقد رأى العقوبة في أمته إلا نبيكم صلى A عليه وسلّم قال : وذكر لنا أن رسول A صلى A عليه وسلّم أري ما يصيب أمته من بعده فما رئي ضاحكا منبسطا حتى قبضه A D وذكر من رواية سعيد بن أبي عروبة عن قتادة نحوه ثم روى ابن جرير عن الحسن نحو ذلك أيضا

وفي الحديث [النجوم أمانة للسماء فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد وأنا أمانة لأصحابي فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون] ثم قال D { فاستمسك بالذي أوحى إليك إنك على صراط مستقيم } أي خذ بالقرآن المنزل على قلبك فإنه هو الحق وما يهدي إليه هو الحق المفضي إلى صراط الله المستقيم الموصل إلى جنات النعيم والخير الدائم المقيم .

ثم قال جل جلاله : { وإنه لذكر لك ولقومك } قيل معناه لشرف لك ولقومك قال ابن عباس ههنا البغوي وأورد سواه يحك ولم جرير ابن واختره زيد وابن والسدي وقتادة ومجاهد هما حديث الزهري عن محمد بن جبير بن مطعم عن معاوية B قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : [إن هذا الأمر في قريش لا ينازعهم فيه أحد إلا أكبه الله تعالى على وجهه ما أقاموا الدين] رواه البخاري ومعناه أنه شرف لهم من حيث إنه أنزل بلغتهم فهم أفهم الناس له فينبغي أن يكونوا أقوم الناس به وأعملهم بمقتضاه وهكذا كان خيارهم وصفوتهم من الخلف من المهاجرين السابقين الأولين ومن شابههم وتابعهم وقيل معناه { وإنه لذكر لك ولقومك } أي لتذكير لك ولقومك وتخصيصهم بالذكر لا ينفي من سواهم كقوله تعالى : { لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم أفلا تعقلون } وكقوله تبارك وتعالى : { وأنذر عشيرتك الأقربين } { وسوف تسألون } أي عن هذا القرآن وكيف كنتم في العمل به والاستجابة له .

وقوله سبحانه وتعالى : { واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون } أي جميع الرسل دعوا إلى ما دعوت الناس إليه من عبادة الله وحده لا شريك له ونهوا عن عبادة الأصنام والأنداد كقوله جلت عظمتة : { ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت } قال مجاهد في قراءة عبد الله بن مسعود B : واسأل الذين أرسلنا إليهم قبلك من رسلنا وهكذا حكاه قتادة والضحاك والسدي عن ابن مسعود B وهذا كأنه تفسير لا تلاوة والله أعلم وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : واسألهم ليلة الإسراء فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام جمعوا له واختار ابن جرير الأول والله أعلم